مصطلح الجملة من التأسيس إلى تأويل المفهوم

الدكتور: نوار عبيدي
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف

الملخَّـص:

كثير من الباحثين واللغويين عندما يتحدثون عن مصطلح الجملة يذكرون شيخ النحاة وإمامهم سيبويه (185 هـ) ويقولون إنه أول من تكلم عن (الجملة) في كتابه (الكتاب).

وقد بحثنا في كتاب سيبويه ولم نجد أي إشارة لمصطلح الجملة لا من بعيد ولا من قريب، بل وتاكد لدينا أن سيبويه لا يعرف (الجملة) ولم يشر إلى مفهومها، ولم يقرنها أبدا بمصطلح الكلام.

وبالمقابل فإن العلم والتاريخ يؤكدان أن أول من استعمل مصطلح الجملة في النحو هو المبرد في كتابه (المقتضب) في باب الفاعل. السؤال المطروح الآن: كيف وصل هذا المصطلح إلى المبرد؟

مقالنا سيجيب عن هذا السؤال، ليفتح آفاقا أخرى للبحث في الجملة.

الكلمـــات المفاتيح: جملة، تركيب، كلام، لسان.

le terme de la *« phrase »* de la fondation à l'interprétation du concept

Résumé :

Evoquant le terme « phrase », beaucoup de chercheurs citent le leader des grammairiens arabes *Sibaweyh* (185 h), et prétendent qu'il fût le premier à étudier la phrase dans son fameux ouvrage « *El Kitab* » (le livre).

On a procédé à une recherche dans le livre de *Sibaweyh* en quête du terme « phrase ». Il n'y existait ni de prés ni de loin .On a ensuite établi que *Sibaweyh* ignorait l'existence de la phrase et qu'il n'a jamais fait allusion à sa notion.

Par contre, l'histoire prouve que le premier à utiliser le terme « Phrase » n'était autre que *EL MOUBERED* dans son ouvrage intitulé « *EL MOUKTADHEB* ».

La question qui se pose maintenant : comment ce terme est-il arrivé à El moubared ?

Notre article répond à cette question pour ouvrir de nouveaux horizons devant la recherche sur la phrase .

Mots clés: phrase, structure, language.

the term of *Sentence* from foundation to the interpretation of the concept

Abstract:

Many researchers believe that the concept 'sentence' was first used by the leader of Arab grammarians SIBAWEYH (180 h.) in his well-known book « ELKITAB ».

On the one hand, we searched for the concept 'sentence' in SIBAWEYH's book, and we realized that he never used the term 'sentence' in his writings. Moreover, we discovered that SIBAWEYH ignored the existence of the sentence and even the allusion to its notion.

On the other hand, history proved that the first person who used the concept 'sentence' was « ELMOUBERED » in his book 'ELMOUKTADHEB'. Thus, how did the term 'sentence' arrive to ELMOUBERED's mind?

Henceforth, this article attempts to reply on this question to open new horizons toward researches on the 'sentence'.

Keywords: sentence, structure, language.

تمهيد :

يعد مفهوم الجملة من بين أهم المفاهيم النحوية في علوم اللسان ليس في العربية فحسب بل في كافة اللغات، حيث نالت اهتمام كثيرٍ من اللغويين وأصبحت اليوم اختصاصا لغويا قائما بذاته ساهم في ذلك تطور المناهج البحثية في اللغة ومناهج تعليم اللغات لغير الناطقين بها التي تركز على تعليم التراكيب، هذا فضلا عن النظريات العديدة التي خصت بها الجملة لعل أهمها نظرية تشومسكي في مراحلها الثلاث، وكثافة البحث في الإجراءات الخاصة بالجمل التحويلية التوليدية.

والمتأمل في التراث العربي بمختلف علومه سيلاحظ أن العلماء العرب على اختلاف اختصاصاتهم كانوا يعتمدون تعريفات متعددة ومختلفة للجملة، فالمفسرون والفقهاء والأصوليون، وعلماء الكلام والفلاسفة، ثم الأدباء والنحويون والبلاغيون، كان لديهم دراية بالمفاهيم والمصطلحات اللسانية

كاللسان واللغة والكلام والجملة والكلمة وغيرها ... والذي يهمنا في البداية خاصة فيما تعلق بالجملة؛ من هو أول واضع لهذا المصطلح؟

جاءنا هذا السؤال لأننا تعلمنا أن أبا النحو العربي الذي وضع أول كتاب في النحو هو سيبويه (180هـ)؛ وهو أيضا أول من تكلم عن الجملة، وعندما بحثنا عن المصطلح في (الكتاب) لم نعثر عليه البتة، فقيل إن سيبويه ذكر مصطلح الكلام وعني بها الجملة، فهل هذا صحيح؟

سيبويه ومصطلح الكلام:

لقد ورد مصطلح الكلام عند سيبويه وبوجوه عدّة، لكن لم يعرّفه أبدا كمصطلح لساني بالمفهوم العلمي للمصطلح، ولعل أقرب مصطلح للكلام مصطلح (الكَلِم). وقد ورد هذا المصطلح (الكلم) في الكتاب ست مرات، وقصد به الوحدة الصغرى للكلام، وهو الباب الأول في الكتاب حين قال" هذا باب علم الكلم من العربية، فالكلم اسم وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل "[1].

أمّا مصطلح الكلام فقد ورد حوالي ثلاث مئة وسبعين مرة، وقد أكثر من إضافة (الكلام) إلى لفظة (العرب) كأن يقول: وهو كثير في كلام العرب[2]، أو قوله: ذلك معروف في كلام العرب[3]، وهو يقصد هنا اللغة العربية دون شك.

وقد تعدّدت دلالات استعمال مصطلح الكلام عند سيبويه حتى إنه كان يطلقه على عدة مفاهيم لغوية أخرى أهمها:

– **الاسم:** ومن ذلك قوله: "قولك عَمرو لقيته، وزيدٌ كلمته، إن حملت الكلام على الأول، وإن حملته على الآخر قلت: عَمرو لقيته وزيدا كلمته. وتقول:

زيدٌ ضربني، و عَمرو مررت به، إن حملته على زيد فهو مرفوع"[4]. أي إن حملت الكلام على زيد فهو مرفوع، ويقصد بالكلام (عَمرو) وهو اسم.

وقوله: "ومن جعل رويدا مصدرا قال: رويدك نفسك، إذا أراد أن يحمل نفسك على الكاف، كما قال عليك نفسك حيث حمل الكلام على الكاف"[5] أي حمل نفسك[6].

– **الحرف:** ومن ذلك قوله: "... لأنك تقول أنت مِن خلفي ومعناه أنت خلفي، ولكن الكلام حذف"[7] أي حرف الجر (من).

– **عموم النثر العربي:** وذلك بمقابلته مع الشعر. حيث قال "اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف"[8].

ويقول: "... لأنهم يدعون هذه الهاء في كلامهم وفي الشعر كثيرا، وذلك ليس في شيء من كلامهم، ولا يكاد يكون في الشعر"[9]. وهنا مقابلة واضحة بين الكـــلام (النثر) والشعر. ويقول: "... وقد جاءت على ذلك في الكلام والأشعار"[10].

وقوله:" ومثل ذلك في الكلام قوله تبارك وتعالى:" فان طِبْنَ لكم..."[11].

– **تمام الفائدة:** ومن ذلك قوله: " وتقول ما زيد كريما، ولا عاقلا أبوه، تجعله كأنه للأول بمنزلة كريم لأنه ملتبس به، إذا قلت أبوه تجريه عليه كما أجريت عليه الكريم، لأنك لو قلت ما زيد عاقلا أبوه، لنصبت وكان كلاما"[12] أي تاما ومفيدا. وقوله: "وتقول: ما زيد ذاهبا، ولا عاقل عمرو، لأنك لو قلت ما زيد عاقلا عمرو؛ لم يكن كلاما"[13] أي غير تام ومفيد. وقوله: " لو قلت: السوط ضربت، فكان هذا كلاما، أو الخوان أكلت، لم يكن إلا نصبا، كما أنك لو قلت: أزيدا مررت، فكان كلاما لم يكن إلا نصبا"[14]. وقوله: "واعلم أن (قلت) إنما وقعت في كلام العرب على أن يحكى بها، وإنما يحكى بعد القول ما كان كلاما لا قولا"[15]. ويظهر هنا أنه لا يقصد الجملة

أبدا، مع أن هذه الفقرة هي التي يستشهد بها الكثير فيمن ذهب إلى أن سيبويه يقصد بالجملة الكلام.

كما وجدنا في الكتاب هذه الألفاظ: حد الكلام[16]، وجه الكلام[17]، وأصل الكلام[18] وكلها بمعنى واحد، يقول مثلا: "واعلم أنه إذا وقع في هذا الباب نكرة ومعرفة، فالذي تشغل به كان المعرفة لأنه حد الكلام"[19].

ويقول: " وأحسنه إذا اجتمع نكرة ومعرفة أن يبتدئ بالأعرف، وهو أصل الكلام"[20].

ويقول في موضع آخر: "هذا كله سُمع من العرب، والوجه والحد أن تحمله على أن في (ليس) اضمارا..."[21].

وهكذا نفهم أن حد الكلام ووجهه وأصله بمعنى واحد.. وفي كل ذلك لا يقصد بالكلام الجملة.

كما يستعمل سيبويه الكلام كناية عن لغة العرب كقوله لكثرة استعمالهم[22] أو ما لم تتكلم به العرب[23]، وهو يشير إلى سنن العرب في كلامها.

وهكذا يظهر لنا جليا بأن مصطلح الكلام لم يعن به سيبويه الجملة، ولعل الذين قالوا بأن سيبويه يقصد بالكلام الجملة استدلوا بقوله: " هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة. فمنه مستقيم حسن، ومحال ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسآتيك غدا، وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا وسآتيك أمس، وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكي زيدا يأتيك وأشباه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس"[24].

وفي هذا النص كما نرى لا يشير سيبويه إلى الجملة، لكنه قسم الاستعمال الكلامي العربي إلى هذه الأقسام، وهذا التقسيم مبني على المعنى والإفادة، فهو إما مستقيم (حسن، كذب، قبيح) أو محال ومحال كذب، وليس أساس هذا التقسيم شكليا كما نرى، لأنه لم يضرب لنا مثلا بالجملة الاسمية أو المنسوخة أو غيرهما، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان من باب أولى أن يذكر سيبويه مصطلح الكلام في باب المسند والمسند إليه حين قال: " وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدا، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه وهو قولك: عبد الله أخوك. وهذا أخوك، ومثل ذلك: يذهب عبد الله. فلا بد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر في الابتداء. ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك: كان عبد الله منطلقا، وليت زيدا منطلق، لان هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده"[25].

فليس في هذا النص إشارة – من قريب أو من بعيد – إلى مصطلح الجملة أو الكلام، بالرغم من أنه ذكر الجملة الاسمية والفعلية والمنسوخة.

إنه من الضروري هنا أن نفهم كيف كان يضع سيبويه مصطلحاته. وطريقته في ذلك تمثلت في الوصف أو التعبير عن الفكرة[26]. فسيبويه يصف ويعبر عن فكرة الجملة بعلاقة المسند والمسند إليه فقط، كما رأينا في كلامه في باب الإسناد.

السؤال الخطير الذي نطرحه الآن هو: كيف فهم اللغويون والباحثون منذ القديم أن سيبويه هو أول من تحدث عن الجملة؟ ومن كان وراء هذا الفهم؟

والإجابة ببساطة: إنه ابن جني (392هـ) في كتابه الخصائص.

نعم لقد نسب ابن جني كلاما لسيبويه لم يقله، فأخطأ وخطّأ كل مَن جاء بعده إلى يوم الناس هذا. فماذا صنع ابن جني بنصوص سيبويه؟

في البداية عندما طفق ابن جني يفرق بين مصطلحي الكلام والقول، اعتمد منهجاً مهمّا في التفريق بينهما، فلجأ إلى الاشتقاق واستعمال التقليبات[27] فاستخرج من مادتي (ق و ل) ومادة (كـــ ل م) تقاليبها الستة، وأوضح أن (القول) في كل أحواله يدلّ على الخفوف في الحركة[28]. أمّا الكلام في كل تقلباته فيدلّ على القوة والشدة[29]. هذا من حيث الاشتقاق أمّا من حيث الاصطلاح فالكلام عنده كل "لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه، **وهو الذي يسميه النحويون الجُمل نحو زيد أخوك...**" [30].

بهذه الجملة الأخيرة **(وهو الذي يسميه النحويون الجُمل نحو زيد أخوك)** بدأ الإشكال، حيث نسب ابن جني فكرة التسوية بين مصطلحي الكلام والجملة إلى (النحويين) دون أن يذكر اسما واحدا، لكنه في كل هذا الحديث كان لا يعتمد سوى على سيبويه، فزعم أن سيبويه تحدث عن الجملة وذلك في معرض حديثه عن الفرق بين (الكلام والقول) وقد استشهد بقول سيبويه "واعلم أن (قلت) في كلام العرب إنّما وقعت على أن يحكى بها، وإنّما يحكى بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً "[31]. وكلام سيبويه هذا واضح في التفرقة بين القول والكلام حيث مثّل لذلك بقوله" نحو قلت زيد منطلق. لأنه يحسن أن تقول: زيد منطلق. ولا تدخل قلت"[32]. ويقصد سيبويه هنا أن (قلت) لا تعمل في (زيد منطلق) فتنصبهما كـــ (ظن وأخواتها)، هذا هو المقصود من كلام سيبويه، وقد أورد كل هذا النص في باب الأفعال التي تستعمل وتلغى وهي: ظننت، وحسبت، وخلت، وأريت، وزعمت.

فماذا فعل ابن جني؟

لقد أخذ ابن جني نص (الحكاية) السابق وقال عن سيبويه " ففرّق بين الكلام والقول كما ترى، وأخرج الكلام هنا مخرج ما استقرّ في النفوس وزالت عنه عوارض الشكوك، ثم قال في التمثيل: نحو قلت: زيدٌ منطلقٌ. ألا ترى أنه يحسن أن تقول: زيد منطلق. فتمثيله بهذا يعلم منه أن الكلام عنده ما كان من الألفاظ قائماً برأسه مستقلاً بمعناه، وأن القول عنده بخلاف ذلك"[33].

نلاحظ هنا كيف فسّر ابن جني المثال الذي قدّمه سيبويه، حيث أضاف أن سيبويه يقصد بالكلام (ما كان من الألفاظ قائماً برأسه مستقلاً بمعناه) وهذا التفسير جعله ابن جني تمهيداً ليلصق مصطلح الجملة بسيبويه فقال معلّقاً على كلام سيبويه: " إذ لو كانت حال القول عنده حال الكلام لما قدّم الفصل بينهما، **ولمَا أراك فيه أن الكلام هو الجُمل المستقلة بأنفسها الغانية عن غيرها**، وأن القول لا يستحق هذه الصفة من حيث كانت الكلمة الواحدة قولاً وإن لم تكن كلاماً "[34].

ونلاحظ هنا جيداً كيف صرح ابن جني وأكد أن سيبويه أرانا بذلك الفصل بين الكلام والقول، **أن الكلام هو الجُمل.**

فهل فعلاً قصد سيبويه من هذه التفرقة أن الكلام هو الجُمل؟

هذه هي الخطورة التي أشرنا إليها سابقاً، ولذلك بدأنا هذا المقال بالحديث عن (الكلام) في كتاب سيبويه، وقد أوضحنا الدلالات التي عناها سيبويه لمصطلح الكلام، ولم نعثر عنده حديثاً عن الجملة – كمفهوم للتركيب – ونزعم أن هذا المفهوم لم يعرفه سيبويه أبداً. بل ولم يخطر بباله أبدا أن الجملة عنصر ضروري في الكلام واللغة، بالرغم من أن مادة (ج م ل) وجدناها في الكتاب، وقد ذكرت بالضبط عشر مرات ولكن معناها العام هو جمع الشيء[35].

وقد تعجب عبد الرحمن الحاج صالح لعدم وجود مصطلح الجملة في الكتاب، وقال إن هذا أمر غريب[36]. ونحن نقول إن الأغرب من ذلك أن الخليل (170هـ) شيخ سيبويه قال في العين في مادة (ج م ل) " وأجملتُ له الحسابَ والكلامَ من الجملة"[37]، فلو انتبه سيبويه إلى هذا التعريف لاستعمل المصطلح، وكيف لا وكل (الكتاب) معتمدٌ فيه على الخليل[38].

ومثل ابن جني ذهب عبد الرحمن الحاج صالح إلى أن سيبويه قصد بالكلام الجملة فقال " فغياب مصطلح الجملة في الكتاب لا يعني طبعاً أن مفهوم الجملة لا يوجد عند سيبويه، فهو يسميها عادة كلاماً، وإذا دقق قال الكلام المستغنى،،، الذي يحسن أن يسكت المتكلم عند انتهائه، لأنه قد استقل لفظاً ومعنى، وبذلك يشكل وحدة تبليغية تتم بها الفائدة للمخاطب، أي يستفيد بها. وقد لاحظنا أن لفظة الكلام كافية للدلالة على مفهوم الجملة المفيدة عند سيبويه "[39].

ويبدو لنا أن عبد الرحمن الحاج صالح لم يبعد كثيراً عن ابن جني، ولعلّه استلهم الفكرة منه. ذلك لأن الكلام عند سيبويه قصد به الحرف والاسم والفعل، وعندما تكلّم عن الإفادة أو التبليغ قصد الكلام مقارنة بالقول فقط، ليأخذ الكلام عنده صفة اصطلاحية كما استنتج ذلك ابن جني، إلا أن هذا الأخير تجاوز تعريف سيبويه لإلحاق مصطلح الجملة بالكلام.

ولعلّ الأمر الذي زاد في اعتقاد هؤلاء – من أن سيبويه عرف الجملة كمفهوم لساني – ما قاله سيبويه في باب المسند والمسند إليه عندما أشار إلى المبتدأ والخبر والفعل وفاعله والنسخ بـ (كان وليت)[40].

وواضح هنا أن سيبويه تحدّث عن مكونات الجملة وأدواتها، إلا أنه لم يقصدها كمفهوم لساني بقدر ما كان يتحدّث عن عملية الإسناد التي هي

ضرورة لتأليف الكلام، وهو هنا يذكرنا بالنظم الذي يعني ائتلاف الكلمات، وموافقة بعضها لبعض حسب قوانين النحو التي ذكر بعضها سيبويه في هذا الباب. ولكي يحترز سيبويه عن وقوع اللبس في الإسناد أردف هذا الباب بالحديث عن اللفظ والمعنى (الترادف والتضاد)، ثم باب ما يكون في اللفظ من الأعراض (كبعض التصاريف)، ثم ختم الفصل بباب الاستقامة من الكلام والإحالة (حسن، كذب، قبيح، ومحال ومحال كذب).

هذا الترتيب في الأبواب لم يأت اعتباطاً، وإنّما جاء متوالياً دقيقاً ليؤكد سيبويه أن عملية الإسناد يجب أن تراعي أحوال الألفاظ من جهة، وتراعي طرائق الكلام الصحيحة من جهة أخرى، وهو بهذا الصنيع يشعرنا أنه كان يحاول أن يبحث عن مفهوم للتركيب، وكاد أن يطلق عليه مصطلحاً إلا أنه دار حوله، وفهمه من خلال عملية عقلية بحتة اسمها الإسناد.

والذي يقوي مذهبنا ما ذكره ابن هشام الأنصاري (761هـ) عندما فرّق بين الجملة والكلام مؤكّدا أنهما ليسا مترادفين بل قال بأن الترادف " يتوهّمه كثير من الناس، وهو ظاهر قول صاحب المفصل"[41]، وصاحب المفصل هو الزمخشري، ولم يقل إنه قول سيبويه، وهو المتقدّم على الزمخشري، لأن سيبويه لم يقصد ذلك أبداً، ولفظة (التوهم) تسري أيضاً على ابن جني الذي ذكر مرة أخرى أن الكلام عبارة عن "الألفاظ القائمة برؤوسها عن غيرها، وهي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجُمل على اختلاف تراكيبها "[42]، وذلك لإيهام الناس أن سيبويه قصد ذلك وهو من أرباب صناعة النحو!

مصطلح الجملة ومفهومها بدأ مع المبرد:

الظاهر تاريخيا أن المبرّد (285هـ)[43] هو أول من ذكر مصطلح الجملة، إذ يقول عن الفاعل في (باب الفاعل): " لأنه هو والفعل جملة يحسن عليها السكوت، وتجب بها الفائدة للمخاطب "[44]. والمصطلح هنا واضح لا يحتاج إلى تأويل. لكن الإشكال عند المبرّد هو أنه لم يفتح باباً خاصاً بالجملة معرّفاً لها ومبيّناً أقسامها وعناصرها، وقد وجدنا في المقتضب أن المبرد استعمل لفظ (الجملة) سبعا وأربعين مرة، قصد فيها المصطلح بعينه في عشرة مواضع فقط، حيث ذكر جملة الصلة في قوله: "وَلَو قلت: قَامَ الَّذِي ضربت هندٌ أَباها لم يجز لأَنَّ (الَّذِي) لَا يكون اسْما إِلاَّ بصلَة، ولَا تكون صلته إِلاَّ كلَاما مستغنيا نَحْو الِابْتِدَاء وَالْخَبَر وَالْفِعْل وَالْفَاعِل والظرف مَعَ مَا فِيهِ، نَحْو فِي الدَّار زيد، ولَا تكون هَذِه الْجمل صلَة لَهُ إِلاَّ وفيهَا مَا يرجع إِلَيه من ذكره"[45]، وذكر الجملة المحكية في قوله:" إِنَّمَا تحكى الْجمل نَحْو قلت زيد منطلق لِأَنَّهُ كَلَام قد عمل بعضه فِي بعض، وَكَذَلِكَ قَرَأت الْحَمد لله رب الْعَالمين، ورَأَيْت على خَاتمه الله أكبر"[46]، وذكر الجملة الاسمية والجملة الفعلية في قوله :" فَلِأَن الِابْتِدَاء وَالْخَبَر كالفعل وَالْفَاعِل؛ لِأَنَّهُمَا جملتان"[47]، كما ذكر الجملة الواقعة صفة والجملة الواقعة حالا في قوله: "وَإِنَّمَا تكون الْجمل صِفَات للنكرة وحالات للمعرفة"[48]، كما ذكر الجملة المضافة في بَاب إِضَافَة الْأَزْمِنَة إِلَى الْجمل[49].

بهذه النصوص تأكد لدينا أن المبرد هو النحوي الأول الذي وضع مصطلح الجملة وعني بها التركيب، فذكر بعض أنواع الجملة وأقسامها كالجملة الاسمية والفعلية والظرفية، كما ذكر تلك التي لها محل من الإعراب والتي ليس لها محل. وإن لم يوضح لنا المبرد كيف ولماذا استعمل هذا المصطلح، إلا أن هذا السؤال يمكن أن يوجه أيضا لباقي النحاة الأوائل الذين

وضعوا لنا مئات المصطلحات دون الحديث عن مصدرها إلا البعض منها. والحق أن براعة المبرد كافية لجعله صاحب هذا المصطلح إذ لم يسبقه إليه أحد، فالمراجع لم تذكر نحوياً بارعاً بعد سيبويه في التأليف سوى المبرّد بكتابه المقتضب[50].

المبرد يحرف كلام سيبويه:

لكن المبرد وهو تلميذ سيبويه البصري لم يكن أمينا عندما نقل نصا لسيبويه عن (الحكاية)، وكان يكفي للمبرد أن يستبدل كلمة مكان الأخرى ليغير تماما مجرى حياة مصطلحي الكلام والجملة في النحو العربي.

قال سيبويه: "واعلم أن (قلت) في كلام العرب إنّما وقعت على أن يحكى بها، وإنّما يحكى بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً"[51]

وقال المبرد:" لِأَن (قلت) إِنَّمَا يَقع بعْدهَا الْحِكَايَة إِذا كَانَت جملَة نَحْو الِابْتِدَاء وَالْخَبَر وَمَا أشبه ذَلِك"[52]

وللتوضيح أكثر أجرينا هذه المقارنة السريعة بين نص سيبويه ونص المبرّد وهما من نفس الباب (باب الحكاية) لنرى ما الفرق بينهما:

نص سيبويه	نص المبرّد	الفرق بينهما
واعلم أن (قلت) في كلام العرب	لأن (قلت)	نفس النص
إنّما وقعت على أن يحكى بها	إنّما يقع بعدها الحكاية	نفس النص
وإنّما يحكى بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً	إذا كانت جملة، نحو الابتداء والخبر، وما أشبه ذلك	هنا عوّض المبرّد مصطلح الكلام بمصطلح الجملة

فجملة الحكاية (المفعول به) عند سيبويه هي الكلام، لكن المبرد حذف مصطلح (الكلام) وعوضّه بمصطلح (الجملة)، ولم ينسِب المبرد هذا النص وهذا الفهم إلى سيبويه.

والآن نعود إلى ابن جني ونطرح أهم سؤال في هذه المسألة وهو: كيف استنبط ابن جني فكرة التسوية بين مصطلحي الكلام والجملة وأسندها إلى سيبويه؟

الظاهر منذ الوهلة الأولى أن ابن جني استنبط الفكرة مباشرة من سيبويه من باب (الحكاية) السابق، ولم يستنبطها من باب المسند والمسند إليه ولا من باب الاستقامة وهما البابان الأقرب إلى فكرة الجملة.

وعندما فحصنا المسألة انتهينا إلى نتيجة مفادها أن ابن جني لم يأخذ نص (الحكاية) من سيبويه مباشرة، وإنّما أخذ نص المبرّد الذي هو " لأن (قلت) إنّما يقع بعدها الحكاية إذا كانت جملة، نحو الابتداء والخبر، وما أشبه ذلك "[53]. هنا زعم ابن جني أن سيبويه عني بالكلام الجملة، وسوى بينهما.

وكان الأوْلى على ابن جني أن يرجع إلى كتاب سيبويه للتأكّد من النص، كما كان الأوْلى به أن يذكر صاحب النص الثاني وهو المبرد. ولكنّ ابن جني كان يعلم مكانة المبرّد من سيبويه، والنسبة بهذا الوجه إلى سيبويه أقوى من نسبتها إلى المبرّد نظراً للمكانة العلمية البارزة والكبيرة لسيبويه آنذاك.

فماذا وقع بعد ذلك؟

لقد احتار علماء اللغة في الجملة وأقسامها خاصة بعد المبرّد والذين اطلعوا على نصه، وزادت الحيرة بعد ابن جني. ذلك أن الذي فهموه من كلام سيبويه (بعد تأويله) أن الجملة يشترط فيها الإفادة. وقد واجه العلماء

ظاهرة الإسناد بقوة حيث عثروا على عمليات إسنادية كثيرة لا يتوفر فيها شرط الإفادة لتصبح جملة أو كلاماً، فاضطربت الآراء خاصة في جملتي الشرط (الفعل والجزاء)، وجملة الظرف، والصلة، بالإضافة إلى تراكيب أخرى كالإضافة، والنداء. وهذا النقاش لا يزال متواصلاً إلى اليوم، حتى ذهب كثير من المحدثين إلى اتهام البحث القديم حول الجملة بالعقم والخلط، وقالوا إن سبب ذلك هو العامل[54]. والحق كما بيّنا أن الخلط كان سببه ابن جني، وبدرجة أقل المبرّد عندما حرفا مفهوم سيبويه للكلام.

ولو فرضنا أن ابن جني لم يلصق ذلك الكلام بسيبويه، لاتخذ البحث في الجملة مذهباً آخر، ولما وقع اختلاف كبير حول تعريفها أو أقسامها. وذلك هو الخطر الذي عنيناه.

خاتمـــة

أردنـــا من خلال هذا التحليل أن نؤكد:

1- سيبويه لم يعرف مصطلح الجملة ولم يقترب منه أبدا.

2- سيبويه اهتم باللسان واللغة والكلام والكلمة والصوت.

3- المبرد هو أول من استعمل مصطلح الجملة استعمالا نحويا بحتا.

4- المبرد غير كلام سيبويه واستبدل مصطلح الكلام بمصطلح جديد هو الجملة وذلك في باب الحكاية (ما بعد قلت وما شابهها).

5- لم يحترم ابن جني قواعد البحث العلمي ولا الأمانة العلمية. حيث أخذ نصا من المقتضب وأوهم الناس أنه أخذه من سيبويه.

6- يجب إعادة قراءة التراث العربي عموما، واللغوي والنحوي خصوصا، لفرز المفاهيم والمصطلحات بدقة للوصول إلى نتائج علمية موضوعية. والله أعلم بالصواب.

الإحالات والمصادر والمراجع

[1] – سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1966/1. ج1 ص12.

[2]– وردت هذه الكلمة أربعين مرة، انظر مثلاً م ن، ج1 ص339.

[3] – م ن، ج1 ص428.

[4] – م ن، ج1 ص92.

[5] – م ن، ج1 ص251.

[6]– م ن، ج1 ص303، 307، 309، 433.

[7] – م ن، ج1 ص417.

[8] – م ن، ج1 ص26.

[9] – م ن، ج1 ص 72.

[10] – م ن، ج1 ص411 وانظر ص85، 101، 209.

[11] – م ن، ج1 ص210، الآية 4 سورة النساء.

[12]– م ن، ج1 ص61.

[13] – م ن، ج1 ص61.

[14]– م ن، ج1 ص104.

[15] – م ن، ج1 ص122.

[16] – انظر مثلا م ن، ج 1 ص47، 62، 102، 120، 144، 181.

[17] – م ن، ج 1 ص69، 181، 182، 228.

[18] – م ن، ج1 ص328.

[19] – م ن، ج1 ص47.

[20] – م ن، ج1 ص328.

[21] – م ن، ج1 ص147.

[22] – م ن، ج1 ص244، 275، 281، 283، 292.

[23]– م ن، ج1 ص72، 83، 103، 312، 318، 323.

[24] – م ن، ج1 ص26.

[25] – م ن، ج1 ص23.

[26] – د/عوض حمد الفوزي، المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1983.ص122وما بعدها.

[27] – قال ابن جني عن هذه العملية الاشتقاقية إنها "موضع يتجاوز قدر الاشتقاق، ويعلوه على ما فوقه، وستراه طريقاً غريباً، ومسلكاً من هذه اللغة الشريفة عجيباً". انظر ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد

علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د ط، 1955. ج1 ص5. ومعلوم أن هذه التقليبات هي القاعدة الأساسة التي اعتمدها الخليل في صنع العين.

[28] – م ن، ج1 ص5.

[29] – م ن، ج1 ص13.

[30] – الخصائص، ج1 ص17.

[31]– الكتاب، ج1 ص122.

[32] – م ن، ج1 ص122.

[33]– الخصائص، ج1 ص20.

[34]– م ن، ج1 ص20.

[35] – يقول مثلاً عن أسماء الشهور" لأنهم جعلوهن جملة واحدة لعدة أيام" الكتاب، ج1 ص217. أو قوله "جملة هذا الباب" م ن، ج3 ص119. أو قوله"فهذه جملة هذا كله" م ن، ج3 ص208. وقد جاءت اللفظة في قوله تعالى" لوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً". الفرقان، الآية 32.

[36] – بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، الجزائر، ط2007/1. ج1 ص290.

[37] – العين، (ج م ل).

[38] – يجمع العلماء أن (الكتاب) يكاد يكون للخليل، وقد استشهد سيبويه بشيخه حوالي ثلاث مئة مرة، منها مئتان وأربع وعشرون مرة ذكره باسمه، والباقي عندما يقول (سألته) أي الخليل، وقد ذكر أحد تلاميذ الخليل أن سيبويه عندما أراد أن يضع (الكتاب) قال له: تعال حتى نتعاون على إحياء علم الخليل. انظر مقدمة المحقق، الكتاب، ج1 ص8.

[39] – بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1 ص291. وذكر د/ عبد الرحمن الحاج صالح أن هذا المفهوم استعمله النحاة المتأخرون، وقبلهم ابن جني حين قال عن الكلام إنه "كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه" كما مرّ معنا. ومثل ذلك رأى د/ محمد خان أن سيبويه لم يستعمل الجملة بمفهومها النحوي، إلا أنها ظلت حاضرة في الكتاب باستعماله مفهوم (حسن السكوت). انظر د/ مجمد خان، لغة القرآن الكريم دراسة لسانية تطبيقية للجملة في سورة البقرة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط2004/1. ص18.

[40]– الكتاب، ج1 ص23.

[41]– ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق ح. الفاخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1997/2. ج2 ص5. أمّا الزمخشري فقد قال"الكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى،،، وتسمّى جملة". الزمخشري، المفصّل في علم العربية، تحقيق سعيد محمود عقيل، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2003/1. ص8. وتبعه ابن يعيش حين قال"الكلام عبارة عن الجُمل المفيدة" ابن يعيش، شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، لبنان، د ط، د ت. ج1 ص21. وقد أكّد السيوطي رأيَ ابن هشام في أن لا ترادف بين الكلام والجملة. انظر السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع،

تحقيق د/ عبد السلام هارون، ود/ عبد العالم سالم مكرم، دار البحوث العلمية، د ط، 1975. ج1 ص29.

[42] – الخصائص، ج1 ص32.

[43] – ذكر د/ عوض حمد القوزي في مقارنة أجراها بين الكتاب والمقتضب، أن المبرّد تأثر بشدة بسيبويه فتقيّد بمصطلحاته "حتى قارب أن يكون نسخة منه في كثير من المسائل". حيث عدّ المبرّد أميناً على النحو البصري وعمل جاهداً على الحفاظ على المصطلحات التي جاء بها سيبويه. انظر المصطلح النحوي نشأته وتطوره، م س، ص156 وما بعدها.

[44] – المقتضب، ج1 ص8

[45] – م ن، ج1 ص 19

[46] – م ن، ج2 ص 310

[47] – م ن، ج3 ص 177

[48] – م ن، ج4 ص 123

[49] – م ن، ج 4 ص 347

[50] – المصطلح النحوي نشأته وتطوره، م س، ص156.

[51]– الكتاب، ج1 ص122.

[52] – المقتضب ج4 ص 78

[53] – م ن، ج4 ص78.

[54] – قال د/ مهدي المخزومي"إن العامل كان يمثل عهداً كان يجهل طبيعة الدرس النحوي، ويجهل أن النحو درس لغوي يخضع لاعتبارات لغوية محضة لا مكان بينها لحكم العقل ولمنطق العقل". انظر د/ مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه. منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ط1964/1. ص229. وقال أيضا "لا بد لنا أن نصحّح نهج القدماء، ونعيد إلى هذه الدراسة اعتبارها الذي جار عليه تعنت النحاة وتمحلهم وجهلهم موضوع دراستهم". م ن، ص34. والعامل هو الكلمة الملفوظة أو المقدرة التي تمتلك القدرة على التأثير في الكلمات التي تقع بعدها من الناحيتين الشكلية والإعرابية، وهو أقسام: لفظي ولغوي ومقدر. انظر د/ محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، دار العرفان، عمان، ط1/ 1983. ص160. وانظر د/ أحمد سليمان ياقوت، ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1983/1.ص61 وما بعدها.